أَلَا كُـلُّ سَـمْـحٍ غَـيْـرَكَ الْـيَـوْمَ بـاطِـلٌ
وَكُـلُّ مَـديـحٍ فـي سِـوَاكَ مُـضَـيَّـعُ (١)

رحل العزاء برحلتي

وقال في صباه ارتجالاً على لسان رجل سأله ذلك:

[الكامل]

شَـوْقِـي إِلَـيْـكَ نَـفَـى لَـذِيـذَ هُـجُـوعِـي
فَـارَقْـتَـنِـي فَـأَقَـامَ بَـيْـنَ ضُـلُـوعِـي (٢)
أَوَ مَـا وَجَـدْتُـمْ فـي الـصَّـرَاةِ مُـلـوحَـةً
مِـمَّـا أُرَقْـرِقُ فـي الْـفُـرَاتِ دُمُـوعِـي (٣)
مَـا زِلْـتُ أَحْـذَرُ مِـنْ وَدَاعِـكَ جَـاهِـداً
حَـتَّـى أَغْـتَـدَى أَسَـفِـي عَـلَـى الـتَّـوْدِيـعِ (٤)
رَحَـلَ الْـعَـزَاءُ بِـرِحْـلَـتِـي فَـكَـأَنَّـمَـا
أَتْـبَـعْـتُـهُ الأَنْـفَـاسَ لـلـتَّـشْـيِـيـعِ (٥)

= قلب كبير يستوعب الكون بما يحتويه من بشر وجنّ، فإذا ما حلّ ساكنوه فيه، فإنهم يتيهون فلا يُمكنهم الخروج منه لعظم اتّساعه.

(١) سمح: كريم. يختم الشاعر مدحه بأن جعل الكرماء لا قيمة لهم إذا ما قورنوا بممدوحه، وكذلك فمدحه هؤلاء مضيعة وقت، فهم لا يستحقّون ما يستحقّه من مدح.

(٢) هجوعي: نومي. لقد حلّ شوقه إلى صديقه بين ضلوعه بعدما فارقه النوم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٣. الصراة: نهر يأخذ من الفرات، فينسكب في دجلة. رقرق الماء: صبّه. يُخاطب الشاعر صاحبه متسائلاً عن سرّ ملوحة نهر الصراة، لقد خالطته تلك الملوحة بسبب ما أراق من دموع الشوق.

(٤) لطالما سعى الشاعر على ألّا يودّعه مخافة فراقه، فانقلب أسف الشاعر على الوداع لما يصحبه من ألم الفراق.

(٥) ورد البيت في: الوساطة: ١٤٣، أسرار البلاغة، للجرجاني: ٢٧٦. العزاء: الصبر. لقد رحل الصبر عن الشاعر بارتحاله عن صحبه، وأنفاسه تتصاعد حرّى منه، فصار العزاء وتنفس الصعداء كأنهما نزيلان ورفيقان حلّا بساحته، فلما رحل ذاك كان حقّ هذا أن يُشيّعه قضاءً لحقّ الصحبة.